المحاضرة الرابعة:

ظروف إلحاق الدول المغاربية (طرابلس، تونس) بالدولة العثمانية

كانت الدولة العثمانية قد غدت في أوائل القرن السادس عشر أعظم قوة في المشرق الأدنى وفي الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وكانت تمثل القوة الإسلامية الفتية، خاصة بعد أن نجحت في الاستيلاء على أملاك الدولة المملوكية في الشام ومصر والحجاز واليمن، وإلى ذلك الوقت لم تلعب البحرية العثمانية دورا بارزا في حروبهم فقد كانت الجيوش البرية هي صاحبة الفضل في مجدهم الحربي. وقد تعرضت البلاد العربية في شمال إفريقيا للخطر والأطماع الاستعمارية البرتغالية والإسبانية، فكان الأمر يستلزم دولة فتية تظاهرها قوة بحرية لمواجهة هذا الخطر المحدق ببلاد الإسلام في الشمال الإفريقي.

إنّ ما أوردته كتب المؤرخين عن الدور الذي لعبه عروج وخير الدين في الحوض الغربي للمتوسط، يؤكد حرصهما على الجهاد في سبيل الله ومقاومة أطماع إسبانيا والبرتغال في الممالك الإسلامية في شمال إفريقيا، ولقد أبدع الأخوان في الجهاد البحري ضد النصارى وأصبحت لحركة الجهاد البحري في القرن السادس عشر مراكز مهمة في شرشال، ووهران وبجاية وغيرها في أعقاب طرد المسلمين من الأندلس، وقد شاعت وذاعت أخبارهما في بلاد المغرب والأندلس وأصبحا يمثلان قوة إسلامية عظيمة توجهت نحوها الأنظار، وقد قويت بفعل انضمام المسلمين الفارين من الأندلس والعارفين بالملاحة وفنونها والمدربين على صناعة السفن.

ففي بداية كان نشاط الأخوين في السواحل الشرقية للمتوسط ومع مطلع القرن السادس عشر 1504م حولاه إلى جهة الغرب ن أين طلب عروج من سلطان تونس أبو عبد الله محمد بن الحسن الحفصي أن يمنحه بعض المراسي كي يتخذها مراكز لأسطوله فوافق السلطان شرط أن يدفع له 5/1 الغنائم.

وحدث أن سطع نجم الأخوين بفعل تلك الانتصارات التي حققاها ضد النصارى وإنقاذهم لآلاف الأندلسيين المسلمين الفارين من إسبانيا، لتذيع شهرتهم أكثر سنة 1510م في كافة أرجاء المعمورة شرقا وغربا، ولعل هذا ما جعل أمال سكان المغرب تتجه نحوهم في صدهم العدوان الإسباني عنهم.

وعليه بفضل جهود هذين الأخوين ومن آزرهما في جهادهما من الأهالي والأندلسيين، تمّ تصفية الجيوب الاسبانية وبالتالي وضع حد للتوسع المسيحي بشمال إفريقيا باسترجاع العديد من المدن المغاربية. وهذه الانتصارات العديدة التي حققها عروج وخير الدين في جهادهما ضد الغزاة الصليبين قد أثارت الإعجاب لدى القوى الإسلامية الضعيفة في هذه المناطق.

ولأن الهجمات الصليبية الإسبانية والبرتغالية لم تتوقف على السواحل المغاربية، كان من الضروري أن يواصل العثمانيون فتوحاتهم في شمال إفريقيا، بمشاركة الجزائر، فجاء الدور بعد ذلك على طرابلس الغرب، التي تمّ تحريرها من يد فرسان القديس

يوحنا سنة 1551م، ثم تحرير تونس، بقيادة علج علي سنة 1574م. فقد كانت بلاد المغرب العربي في نظر الدول الكاثوليكية تشكل الخطوط الخلفية التي كانت تحمي ظهور المسلمين في الأندلس.

1- ظروف إلحاق تونس في بالدولة العثمانية:

بعد إعلان خير الدين تبعية الجزائر للخلافة العثمانية وتمكنه الإسبانيين من جل القطر الجزائري، وجه أنضاره إلى تونس التي وصلت بها الخلافة الحفصية إلى أشد درجات الضعف وكانت أنظار الإمبراطور شارل الخامس قد توجهت إليها أيضا، ومنه فقد وقع صراع بين العثمانيين والإسبان حول تونس.

كما أن من بين أسباب تنافس الطرفين على تونس تلك الاضطرابات العنيفة التي كانت تتخبط فيها للاستيلاء على كرسي السلطة، فمولاي حسن بعد توليه الحكم فتك بإخوته ولم ينجوا منهم إلا الرشيد الذي فرّ لخير الدين، واستغل خير الدين الوضع وتوجه به صوب الخلافة العثمانية لعرض مشروع ضم تونس على السلطان سليمان القانوني، كما يوضح أهمية ضم هذا القطر في توسيع مد ونفوذ العثماني أكثر في شمال إفريقيا.

لقد استمرت تونس سجالا بين الدولتين العثمانية والإسبانية، ففي سنة 1533 أستدعي خير الدين بربروسة إلى اسطنبول؛ وأوكلت له مهمة قيادة الأسطول العثماني، خاصة وأن إبراهيم باشا كان لايزال متواجدا في المشرق. استطاع خير بكفاءته التخطيطية أن يقنع السلطان العثماني بضرورة السيطرة على تونس؛ ولهذا الغرض جلب معه رشيد الحفصي إلى قصر السلطان، أحد أفراد العائلة الحاكمة التونسية، الذي كان محبوبا من قبل سكان تونس، الذين ذاقو ذرعا من ولاء حاكمهم الحالي لشارل الخامس.

وافق السلطان على طلب خير الدين وتوجه هذا الأخير إلى بنزرت بـ 8000 جندي و80 سفينة، ثم دخل إلى حلق الوادي 941هـ/1534م ، ودخل العاصمة التي هرب منها حاكمها الحفصي هاربا إلى أعراب الصحراء ، ولتوطيد النفوذ العثماني أكثر في تونس فقد عمد خير الدين إلى توزيع قولته على كافة البلاد ، وهنا لجأ الحسن الحفصي إلى شارل الخامس لطلب العون ضد الدولة العثمانية ، في ماي 1535م أقلعت حملة عسكرية من برشلونة بها 400 سفينة و 3800 جندي وتوجهت إلى تونس وانضمت إليها قوات الحسن الحفصي 8000 رجل وبعد مقاومة عنيفة استولى الإسبان على تونس وعاد خير الدين إلى الجزائر وعين الحكم الحفصي الحسن على السلطة.

لكن الأهالي تضمروا من الأمر وقادوا ثورة على الحاكم الحفصي لتعاونه مع الإسبان، مما اضطر الحسن الحفصي للفرار، ليظهر في هذه الأثناء درغوث باشا وقام بالإستيلاء على ميناء قفصة عام 1556م واحتل القيروان وأقام بها حامية 1558م ، لكن الإسبانيين ظلوا متمركزين في السواحل لتعاون الحكام الحفصيين معهم.

استمرت الاحوال في تونس بهذه الشاكلة إلى غاية تولي علج علي الحكم في الجزائر ، وقاد هذا الأخير حملة على تونس وهزم الحفصيين وأخذ البيعة للسلطان العثماني في 1569م، هذا الانتصار دفع بالبابا يوحنا إلى تأليف حلف مسيحي يعمل على احتفاظ أوربا بالسواحل التي استولت عليها في شمال إفريقيا، والتقى الجيشان في معركة غرب سواحل مالطة "ليبانتو" 1571م وهزم فيها العثمانيين وأعيد الحاكم الحفصي إلى كرسي العرش عام 1573، غير أن القائد سنان باشا عام 1574 تمكن من القضاء على فلول الحفصيين بعدما حكموها ما يربوا عن 365 سنة وأصبحت تونس بداية من هذه السنة إيالة عثمانية.

ترك سنان باشا بعد مغادرته البلاد ديوانا يجمع مسؤولين لتسيير شؤون البلاد وخدمتها، ولكن بعد فترة ثار صغار الجند ضد رؤساء الديوان سنة 1571 م بسبب جورهم وظلمهم، ومنذ تلك اللحظة بدأ أول حكم عثماني في تونس.

وقد مر الوجود العثماني بعدة مراحل من حيث أشكال تنظمه وتفاعله مع المجتمع المحلي ونوعية مؤسساته وطبيعتها. وبصفة عامة فإن السلطة العثمانية تطورت عبر عدة أزمات من أشكال التمثيل المباشر والتفويض إلى نظام عسكري فتأسيس سلطة وراثية مستقلة تتماشى مع النمط الملكي.

ومثلت سنة 1574م تاريخ انضمام البلاد التونسية إلى الدولة العلية العثمانية فأصبحت بذلك ولابة عثمانية يحكمها باشا موفد من مركز الخلافة لمدة ثلاث سنوات، ورايتها هي راية السلطنة، والخطبة على منابرها تقام باسم السلطان العثماني، وعرفت تونس نظام البابات والدايات واحتدم الصراع بين الفئتين من أجل الإنفراد بالسلطة كما حدث في إيالة الجزائر إلى غاية مجيء الفرنسيين واحتلال البلاد التونسية.

2- ظروف إلحاق طرابلس الغرب بالدولة العثمانية:

ظلت طرابلس الغرب خاضعة للسيطرة الحفصية حتى منصف القرن الخامس عشر، ومع انهيار حكم الحفصيين في طرابلس الغرب قامت إما ارت مستقلة في شكل حكم ذاتي في أقاليم عدة من طرابلس الغرب مثل قابس، وطرابلس المدينة حكمها المدعو سيدي منصور، الذي عرف كأول حاكم مستقل لطرابلس الغرب تباركه الأهالي مجتمعة، وهذا ما أثار حفيظة السلطان الحفصي الذي وجه حملة لاسترجاع طرابلس غير أنه هزم على مرتين وفي الأخير اضطر الطرفان لإعلان هدنة ووضع حد للحرب القائمة بينهما.

تذكر بعض المصادر أن احتلال طرابلس الغرب بدأ التخطيط له بعد أن أبلغ التجار الاسبان الملك فيرديناند بأن المدينة يمكنها أن تشبع رغبات الإمبراطورية الاسبانية، وذلك بقولهم: "ما أ رينا بلدا أكثر منها مالا وأقل سلاحا وأعجز أهلا عن مدافعة العدو"، لكن الواقع يثبت أن الإسبان بعد أن احتلوا أغلب مناطق المغرب الأوسط بدأوا يفكرون في احتلال طرابلس الغرب، حيث يمكنهم جعلها قاعدة لهم في التوسع بمصر التي أضعفها الهوان والأزمات خاصة مع نظام حكم المماليك الذي كان آيلا للزوال.

بعد أن وقعت طرابلس الغرب في يد الإمبراطور شارل الخامس عام 1510، ترك إدارتها لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يتخذون من مالطة مقرا لهم سنة 1535، وألحق هؤلاء بالمدينة الخراب والدمار وأخذوا يهاجمون السفن التي تجوب البحر المتوسط، دخلت بعدها طرابلس تحت حكم الاسبان، رغم محاولات إعادة تحريرها من قبل الساكنة المحلية سنة 1511، غير أنهم فشلوا في اجتياز الأسوار.

وهكذا استمرت المدينة تحت السلطة الاسبان، رغم شكاية أهل طرابلس (تاجوراء) للباب العالي أمرهم سنة 1520م، وقد لبى السلطان سليمان القانوني طلب الليبيين وأرسل قوة عسكرية غير أن مراد آغا مبعوث السلطان عجز عن تحريرها، وذلك للتحصينات القوية التي زود بها الاسبان المدينة.

وبعد أن تمكن العثمانيون سنة 1523م من تحرير جزيرة رودس آخر عقبة لهم في الجزء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، أين طردوا منها فرسان القديس يوحنا، ولتعويضهم عن خسارتهم فإن "الملك الاسباني منحهم طرابلس الغرب في 25 جويلية سنة 1530م.

وهنا تحرك أهالي طرابلس لطلب العون من الدولة العثمانية، فأرسلوا وفدا للسلطان سليمان القانوني يلتمسون فيه العون منه ويعرضون عليه ولاءهم ، فرأى السلطان أن ضم طرابلس سيفسح له المجال لمد النفوذ العثماني على أكثر مناطق المغرب، كما أنها فرصة لإنقاذ المسلمين من السيطرة الاسبانية، ولأجل ذلك أرسل حملة بقيادة سنان باشا 1551 مكونة من 170 سفينة و6000 جندي و40 مدفعا وقام سنان باشا بمحاصرة المدينة وقصف قلعتها حتى اضطرت للاستسلام وفتح أبوابها للأتراك وأجبر فرسان القديس يوحنا على المغادرة والعود لمالطا، ومنذ ذلك الوقت أصبحت طرابلس ولاية عثمانية وقاعدة للأسطول العثماني في المتوسط ومرسى للعثمانيين.

وهكذا بدأت حقبة جديدة من الحكم العثماني لطرابلس، ستستمر لقرون كاملة، وذلك إلى غاية الاحتلال الإيطالي للبلاد سنة 1911م.

وهكذا استطاعت الدولة العثمانية في القرن السادس عشر تحقيق عدة أهداف إستراتيجية شكلت مجتمعة أسسا ثابتة حكمت وضعية الدولة العثمانية داخل المجال الإسلامي لمدة ثلاثة قرون، أي حتى مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر.

وقد تمثل الهدف الإستراتيجي الأول في كسر السيطرة العسكرية والسياسية للقوى الأوربية في المتوسط وفي شمال إفريقيا وشواطئ الجزيرة العربية.

وتمثل الهدف الثاني في توفير شروط قيام وحدة سياسية واقتصادية بقيت راسخة الأسس حتى القرن الثامن عشر الميلادي .

أما الهدف الثالث تجسد فيما أحدثته الدولة العثمانية من تجديدات في مباني السياسة والثقافة والاقتصاد داخل المجال العربي- الإسلامي، وترتب عليها إطلاق ديناميات اجتماعية واقتصادية شتى، لعبت في المراحل التاريخية اللاحقة دوار فعالا في مقاومة شتى التحديات الخارجية والداخلية التي واجهتها الدولة العثمانية.

أما عن وضع المغرب الأقصى في ظل التواجد العثماني في المتوسط فإن الأحداث التي سنذكرها تباعا، تبين أن العثمانيون كان هدفهم بسط نفوذهم على المغرب الأقصى شأنه في ذلك شأن الجزائر وتونس وطرابلس الغرب. وكان القضاء على الغزاة الصليبيين من أكبر اهتماماتهم، لاسيما وأن العثمانيين الذين أعلنوا الخلافة الإسلامية سعوا إلى ضم المغرب في نطاق توحيد البلاد الإسلامية والوقوف بها صفا واحدا ضد الهجمات الخارجية المسيحية، ولتأمين حدود إمبراطوريتهم الغربية ثمّ لاستغلال الموقع المغربي في مهاجمة غربي أوربا وشبه جزيرة أيبيريا قلعة المسيحية الحصينة، بالإضافة إلى أن التوسع في المغرب يمكّنهم من التحكم في طرق المواصلات البحرية الاسبانية والبرتغالية مع العالم الجديد والشرق الأقصى ومراقبتها.